الأسس اللسانية
للمنهج السوسيولوجي في تحليل النصوص

علي القاسمي
الرباط

الخلاصة:

ليست اللغة نشاطا فيزيائيا يفرزه الدماغ ويلفظه جهاز النطق وتنقله أمواج الأثير إلى أذهان السامع فقط، وليست مجرد وسيلة يعبر بها الفرد عن أفكاره ومشاعره فحسب، لأننا لا نستطيع أن نفصل الوسيلة عن محتواها، ولا يمكننا أن نجرد الأصوات من المعاني التي تحملها والأثر الذي تحدثه في المرسل والمتلقي والوسط الذي تجري فيه. ولا يكفي في دراسة طبيعة اللغة النظر إلى مادتها وهيئتها، ولا إلى مضمونها وشكلها، دون أن نتمعن في التفاعل بين التراكيب اللغوية والبنيات الفكرية، ونتأمل في التأثير المتبادل بين اللغة ومحيطها الاجتماعي.

فإلى جانب الوظيفة الاتصالية التي تضطلع اللغة بها، فهي تقوم بتأسيس العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الناطقين بها، وإنشاء الروابط النفسية بين الفرد ومجتمعه، وإذا كانت اللغة

تؤثر في نظرة الناطقين بها إلى الكون، فإن المحيط الاجتماعي يؤثر بدوره في اللغة أصواتا ومفردات وتراكيب ودلالات. وهذا التأثير المتبادل يزيد من أهمية دور اللغة في عملية تلقي النص من قبل القارئ وتأثره به وتفاعله معه، مما يحتم على كاتب النص استخدام لغة يستوعبها القارئ وتتجاور تراكيبها النحوية والدلالية مع بنياته النفسية والفكرية.

وهذا يتطلب تضلع كاتب النص في طبيعة مستويات الخطاب الاجتماعية، وإدراكه للعناصر المختلفة لعملية التواصل من مرسل ورسالة ومتلق وسياق وقناة تنتقل فيها الرسالة وأنواع الضوضاء التي تطرأ على الإرسال، إضافة إلى إلمامه التام بالوظائف المختلفة للغة في المجتمع. وتشكل هذه القضايا المعرفية جوانب أساسية في ميدان علم اللغة الاجتماعي. وهو الميدان الذي انطلقت منه الدراسات النقدية ذات المنهج السوسيولوجي في تحليل النصوص.

1. ماهية اللغة:

إذا استعرضنا التعاريف التي يصوغها اللسانيون للغة وجدنا أنها جميعا لا تشتمل على ماهية اللغة فحسب وإنما على وظيفتها كذلك. فمن تعريف ابن جني للغة القائل إن اللغة «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»(1) إلى آخر تعريف يتداوله اللغويون الغربيون وينص على أن اللغة «قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما»(2)، دأب علماء اللغة على اعتبار وظيفة اللغة ركنا أساسيا من أركان تعريفها. وهكذا نجد أن ابن جني يعدّ وظيفتها التعبير عن أغراض الناطقين بها، ويجعله اللسانيون الغربيون اليوم التواصل بين أفراد المجتمع. وهذا الإصرار على تضمين وظيفة اللغة في تعريفها يدل على أهمية تلك الوظيفة التي لولاها لأمست اللغة مجرد ضوضاء

فيزيائية كغيرها من أنواع الضوضاء المنتشرة التي لا تلقى منا العناية ولا تحظى بالدرس.

2. نظرية الاتصال:

تقوم نظرية الاتصال أو التواصل على تحليل العوامل المكوّنة لكل اتصال بين شخصين يتم بواسطة اللغة، ومن ثم يمكن التعرف على الوظيفة اللسانية لكل عامل من هذه العوامل. وعوامل الاتصال الرئيسية هي:

1 – المُرسل: وهو الشخص الذي يتكلم أو يكتب.

2 – المُتلقي: وهو الشخص المخاطب؛ المستمع أو القارئ.

3 – السياق: أو المرجع أو الموضوع الذي يتحدث عنه المرسل.

4 – الرسالة: وهي المادة المنطوقة أو المكتوبة التي يبعث بها المرسل.

5 – القناة: أي قناة الاتصال، وهي الوسط الذي يسمح فيزيائيا بقيام الاتصال واستمراره.

6 – الشفرة: أي شفرة الاتصال، وهي القواعد المشتركة بين المرسل والمتلقي التي يتم بموجبها إرسال الرسالة وتفسيرها واستيعابها(3).

3. وظائف اللغة:

وطبقا للعوامل المذكورة فإنه يمكن حصر وظائف اللغة بست هي:

1.3 **الوظيفة التبليغية:** عندما يتحدث المرسل ليبلّغ المتلقي شيئا أو يخبره به أو يعرفه عليه، يستخدم عادة جملا خبرية مثل (وصل المهندس الجديد)، وتلحق بها

الجمل الاستفهامية التي تستفسر عن خبر ما مثل (هل وصل المهندس الجديد؟) ووظيفة اللغة في هذه الحالة هي التبليغ أو الإخبار عن شيء ما، والمعيار هنا هو الحقيقة؛ لأن الجمل الخبرية تحتمل الصواب والخطأ.

2.3 **الوظيفة التعبيرية**: في هذه الحالة لا يتحدث المرسل ليخبر أحدا بشيء، وإنما ليعبر عن ذاته وانفعالاته، وتتجلى الوظيفة التعبيرية للغة في أوضح صورها في اللغة المنطوقة بصيغ التعجب أو الغضب أو الألم. والمعيار هنا ليس صواب الخبر أو خطأه وإنما صدق المرسل في التعبير عن انفعالاته أو كذبه.

3.3 **الوظيفة الإيعازية**: وعندما يريد المرسل من المتلقي أن يفعل شيئا ما فيقول له مثلا (اخرج!) أو (أدخل!)، فإن وظيفة اللغة في هذه الحالة إيعازية، لا تحتمل الصواب والخطأ، ولا الصدق والكذب، وإنما يمكننا أن نتساءل عن مشروعية الإيعاز أو الأمر، أي هل للمرسل الحق في إصدار ذلك الإيعاز إلى المتلقي أم لا؟ هل الرسالة مشروعة أو غير مشروعة؟

4.3 **الوظيفة الشعرية أو البلاغية**: عندما تكون الرسالة غاية في ذاتها بصرف النظر عن مضمونها وعما تشتمل عليه من معان، وبصرف النظر عما إذا كانت تحتمل الصواب أو الخطأ، أو الصدق والكذب، وبصرف النظر عن مشروعيتها وعدم مشروعيتها، فإن وظيفة اللغة هنا شعرية أو بلاغية؛ لأن اللغة تستخدم من أجل اللغة ذاتها، حتى إذا كان المرسل يخبرنا بشيء أو يعبر عن انفعالاته أو يوعز إلينا بأمر، فإن أهمية رسالته تكمن في الرسالة ذاتها بحيث يصبح الدال أهم من المدلول. ومناط التساؤل هنا ليس عن صواب الرسالة أو خطئها، ولا عن صدقها أو كذبها، ولا عن مشروعيتها أو عدمه، وإنما عن جمالها أو عدم جمالها.

5.3 **الوظيفة التواصلية**: عندما يلتقي إنجليزيان لا يعرف أحدهما الآخر في

مكان ما ويريدان التعارف، فإنهما سيبدآن الحديث عن الطقس فيقول أحدهما، مثلا، (طقس مشمس جميل) فيرد عليه الآخر قائلا: (نحن محظوظون حقا هذا اليوم). فيضيف الأول قائلا: (نعم، بالأمس كان الطقس سيئا للغاية)، فيقول الآخر (آمل أن يستمر الطقس جميلا غدا)، وهكذا يتواصل الحديث بينهما. وليس المقصود من هذه العبارات جميعها إخبار الآخر بحالة الطقس، فهو يراه كما يراه المتحدث، وإنما المقصود منها إقامة التواصل بين الشخصين واستمراره. وعندما يلتقي عربيان يعرف أحدهما الآخر، يتبادلان السلام ثم يقول أحدهما للآخر مثلا: كيف حالك؟ وكيف حال الأولاد؟ فيجيب الآخر: «الحمد لله، وكيف حالك؟» فليس المقصود من هذه الأسئلة الحصول على تقرير طبي دقيق عن صحة المخاطب وصحة أولاده، وإنما الهدف منها إقامة التواصل وإدامته مع الآخر. ويسمي يعقوبسن هذه الوظيفة بالوظيفة القولية للغة.

6.3 **الوظيفة القواعدية:** أما إذا حملت الرسالة معلومات تتعلق بالقواعد الواجب اتباعها لفهم لغة الرسالة، فإننا في هذه الحالة نستعمل اللغة للحديث عن اللغة ذاتها وليس عن أي موضوع آخر. وتنفرد اللغة من بين وسائل الاتصال الأخرى من حيث استطاعتنا التحدث عن وسيلة الاتصال بالوسيلة ذاتها. فوسائل الاتصال الأخرى كالموسيقى مثلا لا تسمح بذلك، ولكن في حالة اللغة بوسعنا التحدث عنها باستخدام اللغة نفسها. ويسمي يعقوبسن هذه الوظيفة بالوظيفة الواصفة للغة في حين يسميها روبول بالوظيفة فوق اللغوية(4).

4. الحواجز التي تعرقل الإتصال:

ولكن الاتصال لا يتم دائما بين المرسل والمتلقي على الرغم من توفر النية في إقامة هذا الاتصال وإدامته؛ إذ تحدث حواجز مختلفة تعرقله وتحول دونه، ويسمى بعض الباحثين هذه الحواجز بالضوضاء، وهو الاصطلاح الذي يستخدمه العاملون في الاتصالات السلكية واللاسلكية. وقد تحول هذه الحواجز أو الضوضاء دون قيام الاتصال بتة إذا كانت قوية، كما أنها قد تشوه الرسالة أو تسمح بتبليغ جزء منها فقط. ويمكن تقسيم الحواجز التي تعرقل الاتصال حسب تعلقها بعوامل عملية الاتصال التي ذكرناها آنفا. وفيما يلي أهم هذه الحواجز:

1.4 الحواجز المتعلقة بالمرسل:

قد يمسي الإرسال مختلا بسبب المرسل ذاته. فإذا لم يتمكن المرسل من عرض رسالته بوضوح فإنه قد يصعب على المتلقي استيعابها. ولهذا ينبغي على المرسل أن ينظم أفكاره أولا، ويصوغ رسالته بمستوى لغوي يفهمه المتلقي، ثم يعرضها عرضا منظما واضحا. ومن هنا جاء القول المأثور في التراث العربي: «حدثوا الناس على قدر عقولهم». فالمسؤولية ملقاة على عاتق المرسل.

ومن الحواجز المرتبطة بالمرسل انفعاليته. فإذا كان انفعاليا لا يسيطر على أعصابه ولا يتمكن من كبح جماح غضبه، فإن مستوى التفكير المنظّم الواضح سيتضاءل لديه إلى درجة يمسي معها الإرسال مستحيلا أو متقطعا. ومن ناحية أخرى فإن عصبيته الزائدة عن الحد قد تربك المتلقي فلا يستطيع فهم الرسالة واستيعابها.

2.4 الحواجز المتعلقة بالمتلقي:

يستلزم الاتصال أن يتوفر المتلقي على القدرات اللازمة لتلقي الرسالة واستيعابها. فإذا افترضنا أن المخاطب أطرش أصم فإن الاتصال الجيد معه مستحيل ما لم نستعمل أداة اتصال أخرى مثل الإشارة اليدوية. ومن هنا جاء القول السائر (حوار الطرش). كما ينبغي أن يتوفر المخاطب على القدرات الذهنية اللازمة لفهم الرسالة واستيعابها. وحتى إذا كان المتلقي ذكيا فقد لا يتم الاتصال إذا كان شارد الذهن لا يتوفر على درجة الانتباه والوعي اللازمة لاستيعاب الرسالة. وقد يكون هذا الشرود ناتجا عن ضغوط خارجية كالحرارة والضوضاء أو ضغوط ذاتية كالقلق والإرهاق.

3.4 الحواجز المتعلقة بالمرسل والمتلقي:

ويشكل التباين في الخبرات والتوجهات الفكرية والنفسية بين المرسل والمتلقي عائقا أمام عملية التواصل فلا تبلغ هدفها المنشود. ويعود هنا السؤال الفلسفي القديم: هل يستطيع الإنسان فهم دال لم ير مدلوله من قبل؟ أو هل يمكن للفرد أن يستوعب مصطلحا لا يتصور مفهومه؟ وكثيرا ما يتحدث شخصان عن أمر من الأمور فيفهم أحدهما ما لا يسمعه من الآخر بل ما يرغب في سماعه. ولهذا قيل (صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاها). ويمكن أن نعدّ هذا النوع من الحواجز متعلقا بالسياق أو المرجع كذلك.

4.4 الحواجز المتعلقة بقناة الاتصال:

إذا لم تكن هناك قناة للاتصال فإن الاتصال لا يتم بتاتا، أما إذا تعرضت قناة الاتصال إلى ضوضاء فإن وضوح الرسالة يتناسب تناسبا طرديا مع مقدار الضوضاء(5).

5.4 الحواجز المتعلقة بالرسالة وشفرتها:

صحيح أن اللغة هي نظام صوتي من أنظمة الاتصال المختلفة، بيد أن هذا لا يعني أن الاتصال سيتم تلقائيا عندما نستخدم اللغة. وقد ذكرنا آنفا بعض الحواجز التي تحول دون هذا الاتصال. ولكن مما يثير الدهشة أن اللغة ذاتها (أي الرسالة وشفرتها) قد تكون هي نفسها عائقا أمام الاتصال المنشود. وفي هذا يقول عبد القادر الفاسي الفهري: «واعتبار اللغة أداة للتواصل لا يوحي به إلا الحس المشترك السطحي. وإن من يتأمل اللغة ليجد أنها لا تساهم في التواصل أكثر من مساهمتها في عدم التواصل، وأن التفاهم بواسطة اللغة حالة خاصة لعدم التفاهم بها»(6). ولعل طلاب البلاغة والنحو يتذكرون في هذا المجال حالات كثيرة من غموض المعنى أو التباسه بسبب الاشتراك اللفظي في مفردات اللغة أو قواعد اللغة ذاتها.

5. الوظائف الأخرى للغة:

من يتأمل وظائف اللغة التي مر ذكرها يجد أنها محصورة تماما في العوامل المشاركة في عملية الاتصال اللفظي أو الكتابي الذي يجري بين شخصين، مرسل ومتلق. وعلى وجه أدق الوظائف التي يتوخاها المرسل من استخدام اللغة أداة

للتواصل، وتتم بناء على رغبته وإرادته، وبوعي تام منه. ولا تشتمل هذه الوظائف الستة التي يذكرها اللغويون في كتبهم ودراساتهم على وظائف تؤديها اللغة بصورة عرضية غير مباشرة، ومن غير أن يتوخاها المرسل أو يسعى إليها، وبلا إرادة ولا وعي منه. فهي وظائف تقوم بها اللغة ثانيا وبالعرض وليس أولا وبالذات، كما يقول المناطقة، ويتعلق أهم هذه الوظائف، التي أهمل ذكرها، بدور اللغة في إنباء المتلقي بمعلومات إضافية عن المرسل، وبدور اللغة في التأثير بصياغة الفكر وتوجيهه، وبدور اللغة في التأثير في الاقتصاد، وبدور اللغة في تماسك المجتمع.

1.5 الوظيفة المعلوماتية:

إذا التقيت شخصا لا تعرفه في الطائرة أو القطار، ودار بينكما الحديث فأنبأك عن الوجهة التي يقصدها، فإن اللغة هنا تؤدي وظيفتها التبليغية التي مرّ ذكرها في الوظائف الست. ولكن لغته في الوقت نفسه تفضي إليك بمعلومات أخرى لم ينص عليها محدثك في أقواله. فأنت تستطيع أن تعرف من لهجة محدثك وأسلوب كلامه الشيء الكثير عن جنسيته أو المنطقة التي ينتمي إليها في البلاد، وعن مستواه الثقافي والاجتماعي، وحتى عن مهنته. وقد تساعدنا أحيانا المظاهر الخارجية كملامح المتحدث والزي الذي يرتديه على التخمين أو الحدس الذكي، ولكن النظر وحده لا يكفي ما لم يسعفه السمع.

ولا تنحصر مهمة السمع في تلقي ما يقوله الآخر بل تحليل ما يقوله وملاحظة الكيفية التي يتكلم بها. ففي كل مرة يفتح فيها الإنسان فاه، فإنه يفصح –من غير قصد– عن كثير من جوانب شخصيته الثقافية والاجتماعية والنفسية. وهكذا يمكننا أن نحدد على وجه التقريب القطر الذي ينتمي إليه من اللهجة التي يتحدث

بها، حتى إذا تحدث بلغة أجنبية نجيدها، فيمكننا أن نقول عن السائح الذي يتحدث الفرنسية معنا إنه –بلا شك– أمريكي، لأنه يتكلم الفرنسية برطانة أمريكية. وفي مقدورنا كذلك أن نستشف من لغة المتحدّث توجهاته الفكرية وقناعاته الاجتماعية وانتماءاته السياسية. ومن الأمثلة على ذلك دلالة استخدام أحد المترادفات التقريبية الثلاثة (الجهاد والكفاح والنضال) على الميول السياسية للمتكلم في أحد الأقطار العربية، ففي ذلك القطر يستعمل الإسلاميون (الجهاد) والقوميون (الكفاح) واليساريون (النضال).

لماذا نتمكن من استخلاص تلك المعلومات عن المتحدث دون أن يدلي بها؟ يكمن الجواب في أن اللغة تتوفر على لهجات متعددة تختلف فيما بينها على المستويات الصوتية والصرفية والدلالية والأسلوبية وذلك تبعا للمنطقة الجغرافية والجنس والعمر والمهنة والمناسبة(7).

2.5 الوظيفة الفكرية:

يمتاز الإنسان عن بقية الكائنات بقدرته على التمثيل الرمزي. وهذه القدرة هي الأساس المشترك للفكر واللغة. فالفكر يمثل الأشياء والذوات بتصورات في الذهن، واللغة تعبر عن الأشياء والذوات بكلمات منطوقة. ونحن لا نفكر إلا داخل الكلمات(8). ولا نستطيع أن نجسد أفكارنا في الواقع ما لم نصغها في ألفاظ تجعلها أكثر وضوحا لنا وللآخرين. ويكاد الباحثون في الفلسفة واللغة يجمعون على عدم وجود فكر من غير لغة. وهذا ما حدا بالأستاذ عبد الكريم غلاب إلى القول بأن اللغة هي التي خلقت الإنسان(9).

إن رصد التلازم بين الفكر واللغة هو الذي أدى إلى ظهور الفرضية المشهورة

للغويين الأمريكيين أدورد سابير وبنجامين هورف القائلة إن للغة الفرد تأثيرا كبيرا في تفكيره من حيث تصور المفاهيم، وتصنيفه للظواهر في الكون، وكذلك في تكوين شبكة من الأنماط السلوكية يرى العالم من خلالها(10).

3.5 الوظيفة الاجتماعية:

لقد مكّنت اللغة الإنسان من إيجاد نوع من التنظيم الاجتماعي يختلف نوعيا عن التنظيمات الحيوانية. فبينما تقوم التنظيمات الحيوانية على الغريزة وتنتقل من جيل لآخر بالسمات الوراثية (الجينات)، تنبني التنظيمات الإنسانية على التعلم وتنتقل من جيل لآخر بالتواصل اللغوي والتراث الثقافي منطوقا ومكتوبا. وهكذا فعندما وجدت اللغة المنطوقة صار الإنسان متميزا عن الحيوان. وعندما ابتدع الكتابة بدأ التاريخ العلمي للمجتمعات البشرية. ولهذا يقال إن الإنسان صامتا يدرسه علماء الحيوان، والإنسان ناطقا يدرسه علماء الإنثروبولوجي، والإنسان كاتبا يدرسه علماء الاجتماع.

وهناك تفاعل بين اللغة والبيئة الاجتماعية، وتأثير متبادل بينهما. فكما أن اللغة تؤثر في نظرة الناطقين بها إلى بيئتهم، فإن البيئة تؤثر بدورها في اللغة أصواتا ومفردات وتراكيب. والمثل المشهور الذي يضرب في هذه الحالة هو البيئة الثلجية للأسكيمو التي تؤدي إلى تداول أصوات ومفردات معينة تختلف عن تلك التي تستعمل في بيئة صحراوية حارة. فإذا كان للعربية بضع كلمات فقط تعبر بها عن أنواع الثلج المتساقط، فإن لغة الأسكيمو تشتمل على عشرات المفردات لأنواع الثلج المختلفة. وإذا كانت اللغة العربية التي يستخدمها البدو تزودهم بعشرات الكلمات المتعلقة بالجمل وشؤونه، فإن اللغات الإسكندنافية تخلو من مقابلات لهذه

المفردات في حين تزخر بمفردات كثيرة عن حيوان الرنة (وهو نوع من الأيل) الذي يصعب علينا، نحن العرب، حتى تصور شكله.

ومن الأمثلة التي تساق على تأثير التغيرات الاجتماعية في التطور اللغوي، ما طرأ على اللغة العربية ودلالات مفرداتها وأساليبها بعد ظهور الإسلام. كما يضرب علم اللغة الاجتماعي المثل بالتغيرات التي طرأت على اللغة الروسية نتيجة التحولات الاجتماعية في روسيا منذ عام 1860، حيث تم تحرير الأقنان (عبيد الأرض) عام 1861، ثم دخول روسيا الحرب العالمية الأولى، ثم الثورة البلشفية عام 1917، فالمزارع الجماعية، فالحرب العالمية الثانية، فسقوط الشيوعية، وهي أحداث أدت إلى تغيير التركيبة الاجتماعية في روسيا، وانعكس ذلك على بنية اللغة الروسية وألفاظها. ففي حين كانت اللغة تعبر عن أخ الزوج بكلمة واحدة (shurn) أصبح يشار إليه بكلمتين (brat zheny)، وكذلك زوجة الأخ التي كان يعبر عنها بكلمة واحدة (nevestka) أصبحت الآن تسمى بتعبير من كلمتين (zehna brata). ويستنتج علماء الاجتماع من هذا التطور اللغوي أن بنية الأسرة الروسية قد تغيرت، ففي حين كان الروس يعيشون خلال القرن الماضي في أسر موسعة تضم كثيرا من الأقارب. أصبحوا اليوم يعيشون في أسر نووية صغيرة. وعندما يتمتع أحد الأقارب بمنزلة هامة فإن اللغة تخصه بلفظ مستقل، أما عندما تتضاءل أهميته فإن ذلك اللفظ سيضمحل ويضطر الناطقون باللغة الإشارة إليه بتعبير يتألف من أكثر من كلمة. وتدل هذه الأمثلة على التأثير المتبادل بين اللغة والبيئة الطبيعية والاجتماعية(11).

ومن ناحية أخرى، يوجد تفاعل بين اللغة والاقتصاد وتأثير متبادل بينهما. فنحن نعلم أن حاجات الإنسان الأساسية تتمثل في المأكل والملبس والمسكن. ولكي يؤمن الإنسان هذه الحاجات الأساسية اضطر إلى توسيع دائرة نشاطه

الاقتصادي خارج حدود العائلة والقرية والقبيلة ليتبادل السلع مع الآخرين، مما أدى إلى احتكاك لغوي نتج عنه أحيانا تعلم لغة الآخرين، أو اختيار إحدى اللغات لغة تعامل بينية، أو ظهور لغة مشتركة جديدة كما ظهرت اللغة الملاوية بوصفها لغة مشتركة بين اللغات الملاوية البولونيزية، وكما تطورت اللغة الإيطالية الحديثة نتيجة التجارة بين المدن الإيطالية كجنوة وفينيسيا وبيزا في القرون الوسطى. ومن ناحية أخرى نجد أن إجادة اللغة ضرورة من ضرورات التنمية الاقتصادية في الوقت الراهن. إذ تشترط التنمية الاقتصادية توفر البلاد على نسبة عالية من السكان الذين يجيدون القراءة والكتابة. وما أوردناه هنا مجرد إشارات سريعة إلى التأثير المتبادل بين اللغة والاقتصاد.

4.5 الوظيفة النفسية:

عندما يتحدث شخصان بلغة أجنبية في بلد من البلدان على مسمع من أهالي ذلك البلد فإنهما قد يثيران ريبتهم، بل واستنكارهم أحيانا؛ لأنهم لا يعرفون مضمون كلامهما: أتراهما ينتقدان البلد أم ينتقصان من أهله؟ وعلى العكس من ذلك، إذا تحدث سائح أجنبي بلغة أهل البلد ولو بصعوبة ظاهرة فإنه يقابل بالاستحسان ويلقى المساعدة.

إن اللغة توجد وشائج نفسية بين المتحدثين بها؛ لأنها تنتج موجات صوتية أثيرية توصل المرسل بالمتلقي، وتقرب المسافة بينهما، وتجعلهما يشتركان في عملية تواصل واحدة. ويتمخض عن هذا التقارب الفيزيائي تفاهم نفسي أو فكري بينهما، إن لم نقل تعاطف وتعاون. ولا تكمن أهمية المحادثة بين شخصين في معاني العبارات المتبادلة، بل في عملية التواصل ذاتها. ولهذا نجد أن الأطباء

النفسانيين في الغرب ينصحون الزوجين، اللذين يلجآن إليهم طلبا للمشورة، بتبادل الحديث ومواصلة الحوار بينهما. فاللغة تنشئ العلاقات بين الأفراد وتعمل على إدامتها. وتُؤسس في عدد من الدول الأوربية مكاتب مفتوحة ليل نهار لتلقي مكالمات هاتفية من الأشخاص الذين يصابون بالإحباط والإكتئاب ويوشكون على الانتحار، وكل ما يفعله العاملون في هذه المكاتب هو التحادث لمدة طويلة مع المريض، وهم لا يملكون المال لتقديمه إليه ولا الحلول لمشاكله، ولا تتضمن عباراتهم معاني كبيرة؛ ولكن مجرد الكلام معه يريحه ويهدئ أعصابه ويصرف فكره عن الانتحار. فاللغة تعطي الفرد الإحساس بأنه ينتمي إلى مجتمع يعضده، وتمنحه الشعور بأنه ليس وحيدا في هذا العالم الشديد الوطأة عليه. وهذه هي الوظيفة النفسية السحرية للغة. ومنذ أن ترعرع السحر في بابل حتى اليوم وقوام عدته كلمات وكلمات.

6. اللغة والأدب:

إن العمل الأدبي إبداع لغوي، قبل كل شيء. فاللغة تؤدي في النص الأدبي معظم وظائفها التي تحدثنا عنها من تبليغ وتعبير وإيعاز وتواصل وبلاغة، فتشكل النص الأدبي وتؤثر في مساره. وفي الوقت الذي تتأثر فيه نوعية النص الأدبي بنوعية اللغة المستعملة وبكيفية استعمالها، فإن اللغة ذاتها تتأثر بدورها بالنص الأدبي الذي يهبها حياة جديدة، ويجعلها أكثر تألقا وبهاء، فتحقق أسمى تجلياته في الشعر والنثر. وفي هذا يقول الدكتور: عثمان بدري: «إننا نعتقد أن اللغة كائن حي، حيوي، ينمو ويتطور ويأخذ أنساقه المثلى بالاستعمال الحيوي لها. ولكننا نعتقد أكثر أن الذين يبدعون في البنية الداخلية ويجددون عطائها المادي والمعنوي

والروحي والحضاري، ويجعلون منها -بالنهاية- رؤية للعالم هم الكتاب والمبدعون والفنانون على إطلاقهم، لأنهم -هم وحدهم- الذين يسكنون داخل اللغة وتسكن داخلهم»(12).

ولهذا يُعد الإلمام بوظائف اللغة وكيفية تأديتها لوظائفها في المجتمع مكونا أساسيا من مكونات ثقافة الأديب والناقد، وتصبح معطيات علم اللغة الاجتماعي جزءا من الآليات التي يستخدمانها في عملهما الإبداعي.

الهوامش:

(1) – ابن جني، الخصائص، بيروت، دار الكتاب العربي، 1952، ج1، ص 33.

(2) – أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغوية، الكويت عالم المعرفة، 1995، ص 33.

(3) – Del Hymes, "Introduction: towards ethnographies of communication" in American Anthropologist, vot. 66, 1964, no 6, part 2, pp. 12-22.

(4) – أورد محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي نصوص يعقوبسن ورويول حول عوامل الاتصال ووظائف اللغة في كتابهما نصوص مختارة: 5 اللغة، دار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1994، ص ص 51-57.

(5) – غسان يعقوب: «الاتصال» في الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1989، ص ص 18-22، وللدكتور غسان يعقوب كتاب كامل عن حواجز الاتصال.

(6) – عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1982، ص ص 41-42.

(7) – Dwight Bolinger, Aspects of Language, New York: Harcourt, 1968, 135-154.

(8) – هيجل في فلسفة الروح، كما أورده محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي في كتابهما المذكور آنفا، ص ص 63-66.

(9) – عبد الكريم غلاب، من اللغة إلى الفكر، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1993.

(10) – Benjamin Lee Whorf, Language, Thought and Reality: Selected Writings of B.L.

Whorf, edited by John B. Carroll (New York: John Wiley, 1956).

Edward Sapir, Language: An Introduction to the Study of Speech (New York: Harcourt, 1921).

Peter Trudgill, Sociolinguistics (Middlesex, England: Penguin Books, 1969), pp. 12-25. – (11)

(12) – عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، الجزائر، موفم للنشر، 2000، ص 15.